# القديم والجديد(١)

أقول للأستاذ الفاضل الدُّكتور طه حسين « في رفقٍ ولينٍ » وفي عجلةٍ أيضاً : إنِّي في هذه الأيَّام ضنينٌ بما أملك من وقتي أشدَّ الضَّنِّ ، أحسب السَّماء تتفجَّر من يومي في ساعةٍ كالفجر ، فلا يصرفني عن تلك السَّاعة شيءٌ ، ولا يصرفها عنِّي شيءٌ ؛ إذ بين يديَّ كتابٌ في الرَّسائل أعمل فيه ، وأستعين الله على الفراغ منه في وقتٍ معيَّنٍ ، وقد أظلَّ ، أو كاد ، فلا يرينَّ الأستاذ : أنِّي أستطير هذه المرَّة كالطِّيرة الأولى ؛ فإنَّ جناحي في فضاءٍ آخر ، وإنَّ هذا الكتاب الَّذي أعالجه ، لا يجشِّمني عرقاً من القربة ، كما قالوا قديماً ، بل لعلَّه في ألمه أشبه « بعملية » تشريح في القلب ، وستذهب الدَّقائق ؛ الَّتي أكتب فيها هذه الكلمة مأسوفاً عليها ؛ لأنَّها ذاهبةٌ بصفحتين من كتابي .

وأمَّا بعدُ : فلا أرى من الإنصاف أن يَعْمِدَ الدُّكتور إلى جُمَلٍ يقتضبهنَّ من مقالي في مجلَّة الهلال ثُمَّ يهدفها للرَّدِّ ، وكان عسى أن يدفع عنها شيءٌ ممَّا قبلها ، أو بعدها ، أو يشدَّ منها بعض جهاتها ، أو يأتي بها في سياقٍ يبين عن معناها .

وزعم الأستاذ : أنَّه لا يفهم من كلامي هذه الجملة : « وأنت تعلم أنَّ الذَّوق الأدبيَّ في شيءٍ إنَّما هو فهمه ، وأنَّ الحكم على شيءٍ إنَّما هو أثر الذَّوق فيه ، وأنَّ النَّقد إنَّما هو الذَّوق ، والفهم جميعاً . . » ثمَّ دار بهذه الكلمات دورة العاصفة ، وجعلها مسألةً كمسألة الدَّور ، والتَّسلسل المشهورة ، بل جعلها من قبيل : « قصَّةٌ وقضيَّةٌ » . . . فتراه يقول : ذوقٌ هو الفهم ، وفهمٌ هو الذَّوق ، وفهمٌ ليس بالذَّوق ، وذوقٌ ليس بالفهم ، وهلمَّ صاعداً ونازلاً ، وضرب لنا مثلاً بالموسيقا فقال : « ما نظنُّ أنَّ الَّذين يذوقون الموسيقا ، ويطربون لها يفهمونها جميعاً » . وأنا أفسِّر كلامي بهذا المثل نفسه ؛ أقتصر عليه ، ولا أعدوه .

---

(١) نشرها حين المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين بك حول كتابيه : « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » . وللدكتور طه فيهما ، وفي أسلوبهما رأيٌ . وانظر كتابَيْ : « المعركة تحت راية القرآن » و « حياة الرَّافعي » . ( س ) .

نأتي الآن بأستاذٍ قد برع في الموسيقا ، وخالطت أعصابَهُ ، ولحمَهُ ، ودمَهُ ، وندفع إليه قطعةً ملحَّنةً ، ونقول له : اسمع ، وافهم ، واحكم ، وانتقد ! يسمعها مرَّةً بعقله ، أو لعقله ، يتبيَّن ما يكون فيها صواباً ، وما يكون خطأً ، ثمَّ ما يعلو عن الصَّواب من الإجادة والإتقان ، وما ينحطُّ عن الخطأ من الإساءة والتَّخليط ، فهذا هو الفهم .

ويسمعها مرَّةً ثانيةً بحسِّه ، أو لحسِّه ، فيرى أثر ما فهم ، ويريدها في ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض ؛ الَّذي وضعت له ، فإنَّها لم توضع لتكون أصواتاً ، بل لتخلق من الأصوات شيئاً ، فهذا هو الذَّوق ، وكما نراه بعد الفهم وناشئٌ عنه . ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أنَّ من يقول : إنَّ الذَّوق في شيءٍ إنَّما هو فهمه ، أو إنَّما هو عن فهمه ، أو إنَّما ينشأ عن فهمه ، فالعبارة في باب المجاز واحدةٌ لا تختلف .

ثمَّ إنَّ أستاذ الموسيقا وقد سمع القطعة مرَّتين ، أو مرَّة كمرَّتين إن بلغ أن يكون له في كلِّ أذنٍ واحدةٍ أذنان ، يستفتي ذوقه الفنِّيَّ ، ويحكم للقطعة أم عليها ، فهذا هو أثر الذَّوق .

الآن قد حكم الأستاذ ، وانتقد ، وجزم برأيه ، فندب له فلانٌ يقول : أخطأت ، وأسأت ، وجهلت ، وغفلت ، أو تعصَّبت ، وحططت في هوى صاحب اللَّحن ؛ فمن أين جاء هذا الخلاف ، وكيف وقع هذا القول ؟ بل كيف ساغ للثَّاني أن يُجَهِّل الأوَّل ويرى غير رأيه ، ويحكم غير حكمه إلا إذا كان قد فهم غير فهمه ، فأنشأ له الفهم ذوقاً ، وأحدث له الذَّوق حكماً ، وجاءت من هذه المقدِّمات تلك النتيجة الَّتي نسمِّيها النَّقد ، وما هي في الحقيقة إلا الذَّوق والفهم جميعاً ؛ فالَّذين يذوقون الموسيقا ، ويطربون لها ، ولا يفهمونها فقد فهموها على مقدار ما استقرَّ في نفوسهم من أساليب التَّطريب ، وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة ، أو لا تراهم يقولون في أمثال هؤلاء : إنَّ لهم آذاناً موسيقيَّةً ؟ فهذه الأذن هي الفهم بعينه ؛ لأنَّها حاسَّةٌ اجتمعت مِنْ مرانٍ طويلٍ . وقد تقوم في بعض النَّاس على جهله بالموسيقا مقام علمٍ برأسه .

ويقول الأستاذ طه : إنَّه قد يقرأ كلامي ، ويفهمه ، ولا يذوقه ، ولكنَ عدم الذَّوق هنا هو الذَّوق ؛ وليت شعري ما معنى قول المتنبِّي : « ومن يك ذا فمٍ مرٍّ . . . » .

ولو كان الأستاذ ، وأمثاله هم في هذا القياس المتر ، والكيلو متر ؛ لوجب ألا أجد من يذوق كلامي ، ويعجب به ويغالي فيه ، ويكون ذنباً من ذنوبي عند الله بإسرافه في المغالاة ، وأنا واجدٌ بكلِّ واحدٍ مثل الأستاذ طه عشرة ومئةً من غيره ، ولو خرج هو إلى العالم ؛ وسمع ، وفيهم من هم أعلى منه كعباً ، وأمدُّ عنقاً ، وأضخم هامةً ، وأبدع بديعاً ، وأبلغ ، وأذكى ، وأعلم إلى عددٍ من هذه الواوات .

وعجبتُ للدُّكتور يريد أن لا يفهم من عبارتي كما يقول إلا أنَّ : « الذَّوق هو نفس الفهم ، فاللَّفظان يدلان على معنىً واحدٍ ، وإذاً ، وإذاً ، وإذاً . . . » .

فهل يرى إذا قلت له : رأيت القمر وفلانة ليلة كذا ، فكانت إنَّما هي القمر ـ أنِّي أقصد بهما معنىً واحداً ، فيقول لها : « وإذاً » فليسا شيئين مختلفين وإنَّما هو شيءٌ واحدٌ ، وإذاً فكيف صار لها وجه في السَّماء ، ووجهٌ في الأرض ، وبقيت مع ذلك امرأةً من الإنس ؛ وإذاً فهذا كلامٌ لا يفهم .

قال بعضهم : إنَّ « لو » تفتح عمل الشَّيطان ، يريد أنَّها أداة التَّمنِّي ، والمذهب الجديد سيضمُّ « إذاً » إلى « لو » ثمَّ ما هي الكلمة الثَّالثة يا ترى ؟

أنا مع الإعجاب بالدُّكتور الفاضل أرى : أنَّه مستهترٌ بأشياء ، وأنَّ من خلقه : أنَّ ما لا يرضى عنه ، وما لا يفهمه « ليسا شيئين مختلفين » فإذا لم يكن من الفهم بدٌّ قال : إنَّه لا يقتنع ، فإذا ضايقته ، وضيَّقت عليه ؛ لم يبق إلا ما يقول النُّحاة في « أيّ » الَّتي حيَّرهم إعرابها ، وبناؤها : أيٌّ كذا خُلقت .

وأنا ، وأمثالي إنَّما نحرص أشدَّ الحرص على هذه اللُّغة ؛ لأنَّها أساس الأمَّة الإسلاميَّة ، فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتاً ، متيناً ، لا يزعزعه شيءٌ ، ولا يثلمه شيءٌ ، ولا يضعفه شيءٌ ، والدُّكتور وأمثاله لا يبالون أن تكون هذه الأمَّة كبيوت أمريكة المتحرِّكة .

لستُ أنكر التَّجديد ، بل لعلَّ الدُّكتور يذكر مناقشتي إيَّاه في ( الجريدة ) وإصراره يومئذٍ أنْ ليس لأحدٍ أن يُدخل في اللُّغة كلمةً ، وأنَّ قول النَّاس : تنزَّه ، ومتنزَّه ، ونزهة . . . إلخ كلُّها من الكلام العاميِّ ، وتعلُّقه بنصِّ ابن سيده في ذلك ، واستخراجي له نصَّ ابن قتيبة ، وكلاماً كثيراً من استعمال العلماء ، ثمَّ قولَه : أحسنت ، ولكن لو جئتني باللَّفظة في كلام المبرِّد ، والجاحظ ، وفلان ،

وفلان ما اقتنعت !

إنَّما أنكر شيئاً واحداً وهو أن يقال مذهبٌ قديمٌ ، ومذهبٌ جديدٌ ؛ فقد وسَّع الله على النَّاس فيما علموا ، وفيما جهلوا ، ولكنَّ أصحابنا يريدون ألا نكتب إلا نمطاً بعينه ، ولا نذهب إلا مذهباً بعينه ؛ لأنَّ كلَّ ذلك هو الجديد ؛ فأيُّهما خيرٌ لنا ولهم وللَّذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : أن نعتدَّ اللُّغة ، والأدب كلَّ ما اجتمع من قديمٍ ، وجديدٍ ، ونُحْكِمَ هذه اللُّغة ، ونحفظها ، وندافع عنها ، ونجعل تجديدها كتجدُّد الحسناء في أثوابها ، وفي ألوانها دون تشويهٍ ولا مسخٍ ، ولا مسٍّ الجسم الجميل، أم نقول : هذه الشَّفة ، وهذا الأنف ، وهذا الموضع الممتلىء الخدل[1] ، وهذا الموضع الهضيم النَّاحل، وتعال يا دكتور هاتِ المبضع، والمشرط، والمقصَّ، والمنشار ، والإبرة ، والخيط ، وإذاً . . . ؟

لقد أذكر أنِّي رأيت في بعض مقالات الأستاذ طه حسين ، أو في بعض ما يقرِّظ به الكتب : أنَّه قال : إنَّ القديم قد أثبت دائماً : أنَّه أقوى ، وأمتن ، وأصحُّ ، فهل رحل عن هذا الرَّأي ، أم ظهر له في الجديد ما هو أقوى ، وأمتن ، وأصحُّ ؟ ثمَّ يا أيُّها الملأ ! أفتوني : ما هو هذا الجديد ؟ أهو ذاك الخيال الشَّارد المجنون ، أم تلك الشَّهوات المستوثبة ، المتلهِّفة ، أم ذلك الأسلوب الفجُّ المستوخمُ ، أم العامِّيَّة السَّقيمة الملحونة ، أم هو في الحقيقة بين رغبةٍ في النُّبوغ قبل أن تتمَّ الأداة ، وتستحكم الطَّريقة ، كما هو شأن فريق من الكتَّاب ، فيختصرون الطَّريق بكلمةٍ واحدة هي : المذهب الجديد ـ وبين رغبةٍ في التَّعصُّب للآداب الأجنبيَّة ، كما هو شأن فريقٍ آخر ـ وبين رغبةٍ في الحطِّ من قيمة بعض النَّاس ، ورميهم بالجهل ، والسُّخف ، وأنَّه لا قيمة لما يجيئون به ؟ كلُّ ذلك في تعبيرٍ علميٍّ يصحُّ أن يكون نظريَّةً علميَّةً . . . وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١] فقد شاؤوا ، فلم يقولوا ، ولو أنَّ المذهب فسَّر القرآن يوماً . . لقال في معنى أساطير الأوَّلين : إنَّهم أرادوا بها المذهب القديم .

ويقول الدُّكتور طه : إنَّ هناك قوماً ينصرون المذهب الجديد ، وليس لهم من

(١) « الخدل » : خدِلتْ السَّاق : امتلأت ، واستدارت ، فهي خَدْلةٌ .

اللُّغات الأجنبيَّة ، وآدابها حظٌّ ، وحظُّهم من اللُّغة العربيَّة وآدابها موفورٌ ؛ ثمَّ طلب رأيي في هؤلاء ، وما أصل مذهبهم الجديد ؟ فأقول : إنِّي أعرف بعضهم وأعرف أنَّ أدمغتهم لا يشبهها شيءٌ إلا جلود بعض الكتب ؛ الَّتي ليس فيها إلا متنٌ ، وشرحٌ ، وحاشيةٌ : جلدٌ ملفوفٌ على ورقٍ ، وورق ينطوي على قواعد محفوظةٍ ، وهم أفقر النَّاس إلى الرَّأي ، وهذه علَّة حبِّهم للأساليب الجديدة القائمة على التَّرجمة ، ونقل الآراء من الغرب إلى الشَّرق ، وبالمعنى الصَّريح المكشوف : من الأدمغة المملوءة إلى الأدمغة الفارغة ، وفيهم بعض أذكياء ولكنَّ ذكاءهم في حواسِّهم ، فإن لم يكن هذا ؛ فليقولوا هم : لماذا ؟

ولو أنَّك سألت العنكبوت : ما هي الظَّبية الحوراء العيناء ؛ الَّتي تطمعين فيها ، وتنصبين لها كلَّ هذه الأشراك ، والحبائل ؟ لقالت لك : مهلاً حتَّى تقع ، فتراها ! فإذا وقعت رأيتها ثَمَّة ، ورأيتها ذبابةً .

ولكن ماذا يقول الدُّكتور في الأستاذ الإمام الكبير الشَّيخ محمد عبده ؟ أكان يدعو إلى مذهبٍ جديدٍ في اللُّغة ، والأدب ، ويفتتن بالرِّوايات الغراميَّة ، وبأسلوب « إميل زولا » في روايته المعروفة ، ويمثِّل رواية ( الاجرسون ) ؟

إن كان النَّاس عند الدُّكتور في بعض الحجج ، فإنَّ الشَّيخ وحده بأمَّةٍ كاملةٍ ممَّن يعنيهم .

وأختتم هذه الكلمة بالشُّكر للأستاذ طه حسين والثَّناء عليه ، ثمَّ إنِّي مسترسلٌ في عملي ، وهذا عذري إليه .

* * *